الفصل الثالث

عاد لينتقم

obeikandi.com

التاسع عشر من أبريل ١٩٥١م، صار مصدق رئيسًا للوزراء؛ لما يتمتع به من شعبية في مجلس النواب؛ لنزاهته وطهارة يده، إضافةً إلى كونه خَطِيبًا مُفَوَّهًا يستطيع إقناع مَنْ يستمعون إليه بما يريد وشعبيته الجارفة في أوساط الإيرانيين، وقبل هذا وذاك وطنيته وتاريخه السياسيّ المُشَرِّف.

فقد تَوَلّى مصدق وزارة العدل عام ١٩٢١م عندما بدأ نجم الشاه الأب في السطوع، وفي العام التالي تولى حكم إقليم أذربيجان حتى عام ١٩٢٣م، وتولى وزارة الخارجية في العام التالي، وشَكَّلَ عام ١٩٤٤م الجبهة الوطنية لمناصرة تأميم النفط الإيراني، وقبل هذا وذاك وطنيته التي لا يختلف عليها اثنان، ولم ينتظر مصدق طويلًا حتى يترجم وطنيته إلى أفعال.

الثلاثون من أبريل ١٩٥١م، أصدر مصدق قانون تأميم النفط، وهو ما أشعر الشاه بالغضب؛ فقد رأى فيه إغضابًا للسيد البريطاني على وجه التحديد، والذي تتحكم شركاته في حقول النفط الجنوبية، ومن وراءه السيد الأمريكي الذي دخل على خط التنقيب عن النفط قبل سنوات قليلة. لَكِنَّ الشاه لم يكن أمامه سوى الرضوخ لإرادة الشعب المتمثلة في مصدق.

وَقَّعَ الشاه مُرْغَمًا قرار التأميم في الأول من مايو ١٩٥١م، مُلْغِيًا بذلك الامتياز الممنوح لشركة النفط الأنجلو فارسية، والذي كان ممتدًا حتى عام ١٩٩٣م وصَادَر أصولها، وفي الشهر التالي ذهبت لجنة من خمسة أعضاء من المجلس النيابيّ إلى الأحواز "المنطقة التي يتدفق منها تسعون في المائة من النفط الإيراني" لفرض التأميم، وفي الحادي والعشرين من مايو ١٩٥١م ألقى مصدق خطابًا شرح فيه سياسة التأميم، قال فيه:

"لم نتوصل إلى أية نتائج مع الدول الأجنبية بعد سنوات طويلة من المفاوضات، فعائدات النفط تمكننا من تحقيق كامل الميزانية، وأن نكافح الفقر والمرض والعنف، وهناك اعتبار آخر مهم هو أنه عندما نقضي على قوة تلك الشركة البريطانية؛ فإننا نقضي على الفساد والتآمر اللذين تأثرت بسببهما شئون بلادنا الداخلية، فعندما نوقف تلك الوصاية نهائيًا؛ فإن إيران تكون قد حققت استقلالها الاقتصادي والسياسي.

فالدولة الإيرانية تُفَضِّل أن تتولى إنتاج نِفْطِهَا، أما الشَّرِكَة فلا يجب عليها سوى إرجاع الممتلكات إلى أصحابها الشرعيين؛ فقانون التأميم ينص على تخصيص خمسة وعشرين في المائة من أرباح النفط الصافية لتلبية جميع مطالب الشركة المشروعة للحصول على تعويض.

فقد تأكدنا من الخارج أن إيران تعتزم طرد خبراء النفط الأجانب من البلاد، وإيقاف المنشآت النفطية، وهذا ليس فقط ادعاءً سخيفًا بل تلفيقًا كاملًا".

obeikandl.com

ولم يكن ذلك الإجراء هو الوحيد الذي اتخذه مصدق لترسيخ السيادة الوطنية وخدمة الشعب، فقد أصدر مصدق عدة قرارات اقتصادية هامة في صالح المواطن الإيراني البسيط، مثل:

صرف بدل بطالة للعاطلين عن العمل، وإلزام أصحاب المصانع بدفع مساعدات للمرضى والمصابين من العمال، كما حَظَرَ عمل المزارعين بالسُّخْرَة لدى مُلَّاك الأراضي، وخَصَّصَ عشرين بالمائة من إيرادات إيجار الأراضي لمشروعات هامة، مثل: إسكان الريف، ومكافحة الأمراض، وبناء الحمامات العامة. لَكِنَّ رياح البريطانيين لم تأت بما تشتهيه سفن مصدق.

تصاعدت المواجهة بين إيران وبريطانيا على خلفية قرار التأميم؛ فقد رفض مصدق أيَّ تدخل للبريطانيين في صناعة النفط الإيرانية، وبدأت المتاعب تواجه مصدق تِبَاعًا، وكانت أولاها امتناع شركة النفط الأنجلو إيرانية عن دفع التزاماتها للخزانة الإيرانية، وفي السادس والعشرين من مايو ١٩٥١م رفعت الحكومة البريطانية دعوى ضد إيران في محكمة العدل الدولية بمدينة لاهاي الهولندية، مُتَّهِمَةً مصدق بانتهاك حقوقها النفطية، ونشرت بريطانيا تعزيزات لقوتها البحرية في الخليج العربي.

وفي يوليو من نفس العام قطع مصدق مفاوضاته مع الشركة بعد تهديدها بسحب موظفيها وإخبارها أصحاب ناقلات النفط أن فواتير الحكومة الإيرانية لن تكون مقبولة في السوق العالمية، وفي الخامس من الشهر نفسه أصدرت المحكمة حكمًا بإعادة إنتاج النفط كما كان من قبل إلى حين بحث الدعوة مرة أخرى.

وكانت ثاني المتاعب التي واجهت مصدق هي افتقاد العديد من المصافي النفطية للفنيين المُدَرَّبين، وتصاعدت الضغوط البريطانية أكثر فأكثر عَبْر تهديدها باتخاذ إجراءات قانونية ضد مشتري النفط من المصافي التي سيطرت عليها بريطانيا، وبحلول الحادي والثلاثين من يوليو ١٩٥١م، توقف تكرير البترول كُلِّيًا؛ ليبدأ فصل جديد من النزاع بين مصدق والبريطانيين.

سبتمبر ١٩٥١م، صَعَّدَت بريطانيا ضغوطها على حكومة مصدق في المحافل الدولية، فَعَرَضَت النزاع على الأمم المتحدة، وسافر مصدق بنفسه إلى نيويورك حيث مقر المنظمة؛ ليعرض قضية بلاده، ويُنَافِحَ عن حرية شعبه، ولم يسفر الأمر عن حُكْمٍ لصالح بريطانيا، وفي بداية ١٩٥٢م، أخذ البريطانيون القضية إلى محكمة العدل مُجَدَّدًا دون الوصول إلى حل يرضيهم، وكان هاري ترومان ينظر ويترقب.

حاولت بريطانيا إحكام الخِنَاق على مصدق أكثر فأكثر، فحصلت على اتفاق مع شركات النفط العالمية تتعهد فيه هذه الشركات لبريطانيا بألا تحل محل الشركة الأنجلو-إيرانية في إنتاج النفط داخل البلاد.

شَكَّلَ هذا الاتفاق مع أزمة عبدان ضَرْبَةً موجعة للإصلاحات الاقتصادية التي وعد بها مصدق جموع الشعب، لكن هذه الهِزَّة لم تَفُتّ في عَضُد مصدق الذي راهن على شعبيته في أوساط الشعب، ودَعَا إلى انتخابات برلمانية مُبَكِّرَةً مُعْتَمِدًا على قاعدته الانتخابية العريضة في المدن، وأصر البريطانيون ألا يدعوا مصدق وشأنه.

وبتوجيه من وود هاوس مدير مكتب المخابرات البريطانية في طهران، مَوَّلَت شبكة العمليات السرية البريطانية الأخوين راشديان الموالين لنظام الشاه بمبلغ عشرة آلاف جنيه استرليني، إضافةً إلى عشرات الآلاف الأخرى من الجنيهات الاسترلينية التي ذهبت إلى قادة القوات المسلحة وأعضاء المجلس النيابي والزعماء الدينيين والصحفيين الموالين للنظام، كُلُّ ذلك من أجل الترويج والتلاعب بنتائج الانتخابات؛ للتخلص من مصدق المتربع على عرش السلطة، والذي بدا كَخِنْجَرٍ في خَاصِرة المصالح البريطانية.

أدرك مصدق اللعبة البريطانية القذرة؛ فَعَلَّق الانتخابات عندما حصل على النصاب البرلماني الكافي لانعقاد المجلس النيابي وهو تسعة وسبعون نائبًا، وعَلَّلَ ذلك بقوله في إحدى بياناته:

"هناك تلاعب انتخابي يديره عملاء أجانب".

عُقِد مجلس الشورى في السابع عشر من فبراير ١٩٥٢م، لَكِنَّ المعارضة أبت إلا أن تضع العِصِيَّ في دواليب مصدق، ورفض المعارضون المحافظون منح مصدق صلاحيات للتعامل مع الأزمة الاقتصادية التي تعصف بالبلاد؛ نتيجة الانخفاض الحاد في مبيعات النفط بسبب التحريض البريطاني ضد حكومة مصدق في أعقاب التأميم، واضطر الشاه صاغرًا للقبول بمصدق رئيسًا للوزراء مجددًا، لكن الشيطان يَكْمُنُ في التفاصيل.

تدهورت العلاقات بين مصدق وبريطانيا حتى وصل الأمر به إلى قطع العلاقات بين البلدين، وفي السادس عشر من يوليو ١٩٥٢م وافق الشاه على تَوَلِّي مصدق لرئاسة الوزراء، لَكِنَّ خلافًا نشب بين مصدق والشاه بعد أن أَصَرَّ

مصدق على حقه الدستوري في تسمية وزير الحربية ورئيس الأركان، رفض الشاه ذلك لما رأى فيه من تَعَدٍّ على اختصاصاته؛ فقرر مصدق إلقاء قنبلته.

تقدم مصدق باستقالته للشاه احتجاجًا على ما وصفه بالانتقاص من صلاحياته، وتوجه إلى الشعب بقوله: "إنَّ الصراع الذي بدأه الشعب الإيراني لم يمكن تتويجه بالنصر".

تنفس الشاه الصُّعَدَاء، وكَلَّف السياسي المخضرم وأحد رجاله السابقين أحمد قوام السلطنة بتشكيل الوزارة، وقد عقد قوام السلطنة العزم على سلوك مسلك الشاه الانبطاحي قبل تَوَلّي مصدق، فأعلن يوم توليه المنصب نيته استئناف المفاوضات مع البريطانيين لإنهاء النزاع النفطي، ولم يتأخر رد مصدق وأنصاره عما أعلنه قوام السلطنة، وكان رَدًّا عنيفًا.

نظمت الجبهة الوطنية التي يرأسها مصدق بالاشتراك مع حزب تودة الشيوعي مظاهرات حاشدة واحتجاجات وإضرابات مؤيدة لرئيس الوزراء المستقيل، وكَبُرَت كرة الثلج المناوئة للشاه، وعَمَّت الاحتجاجات مدن إيران الكبرى، وأغلق سوق البازار في طهران، وتعامل الأمن الإيراني بخشونة مع مناوئي الشاه؛ فتسبب في مقتل مائتين وخمسين شخصًا في مدن:

طهران وهمدان والأحواز وكرمنشاه، وحتى مَنْ أُصِيب كانت إصابته خطيرة، لَكِنَّ عَزِيمَة المتظاهرين لم تَفْتُر، وظَلُّوا في شوارع إيران يهتفون لمصدق ضد الشاه، في نفس الوقت خَشِيَ قادة الشاه العسكريون من وقوف جنودهم إلى جانب المحتجين؛ ومِن ثَمَّ سقوط طهران في أيدي أولئك الغاضبين؛ وبالتالي كتابة نهاية نظام الشاه؛ فأمروا جنودهم بالعودة إلى ثكناتهم، وصل الإحساس

obeikandi.com

بالخوف من خروج الأوضاع عن السيطرة إلى الشاه؛ فقرر العدول عن قراره بعزل مصدق، وأعفى قوام السلطنة من مهام منصبه، وأعاد تعيين مصدق مع منحه كامل الصلاحيات للسيطرة على الجيش.

اضطر البرلمان الإيراني لمنح مصدق سلطة الطوارئ بعدما فوجئ بشعبيته الجارفة في الشارع، واقتنع أعضاء المجلس بحاجتهم إلى إصلاح برلماني وتعديلات قانونية فيما يخص القضاء والتعليم وقوانين الانتخابات، وقرر مصدق استعراض عضلاته الدستورية؛ فعين آية الله أبو القاسم كاشاني رئيسًا لمجلس النواب تعضيدًا لقوته، وقرر مصدق أن يستعمل قانون الطوارئ بما يسمح له بتقوية المؤسسات السياسية للدولة، وكان ذلك على حساب صلاحيات العائلة المالكة.

بموجب هذا القانون قطع مصدق الميزانية الشخصية للشاه، ومنعه من التواصل المباشر مع الدبلوماسيين الأجانب، ونقل أراضي الدولة التي استولت عليها العائلة المالكة للدولة، وطرد الأميرة أشرف شقيقة الشاه، ووقف الشاه مكتوف الأيدي والغضب يعصف بوجدانه، فماذا عساه يفعل مع رجل تقف معه جموع الشعب وتراه الفارس المخلص؟!

وفي إظهار لإحكام قبضته الحديدية على البلاد، أصدر مصدق أوامره للجيش بالقضاء على ثورة القبائل العربية في إقليم الأحواز المُحْتَلّ، وقد حاولت خلالها هذه القبائل السيطرة على المحمرة عاصمة الإقليم، وقد نَفَّذَ الجيش مهمته المنوط بها على الوجه الأكمل، وأعاد الإقليم المُتَمَرِّد إلى حظيرة الطاعة الفارسية بعد قَمْعٍ عنيف ومَجَازِرَ مُرَوِّعَة، وقد خدم الظرف الإقليمي مصدق في تقوية مركزه في صراعه مع الشاه.

انشغلت إدارة ترومان عن الأوضاع في إيران بما حدث في مصر بانقلاب مجموعة الضباط الأحرار على الملك فاروق والإطاحة به في الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢م، حيث أرادت الإدارة الأمريكية استكشاف نوايا حكام مصر الجدد، في نفس الوقت قررت بريطانيا زيادة ضغوطها على حكومة مصدق؛ لتعيد الأمور لما كانت عليه أو الوصول لتسوية معها على أسوأ الفروض.

لكن مصدق الذي كان مَزْهُوًّا بشعبيته قرر إظهار العين الحمراء للإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، وفي أكتوبر ١٩٥٢م أعلن مصدق أن بريطانيا عدو لإيران، وقطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين، وهنا قرر البريطانيون اللجوء لشقيقهم الأكبر على الضفة الغربية للمحيط الأطلنطي.

كانت إدارة هاري ترومان رافضة للسلوك البريطاني في إيران؛ الأمر الذي دفع ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني وقتها إلى إيفاد عدة وسطاء لواشنطن؛ لإقناع ترومان بالخلاص من مصدق، واستمر كيرميت روزفلت رئيس المخابرات الأمريكية في الشرق الأوسط وأفريقيا يراقب الموقف في البلاد خلال زياراته المتقطعة لإيران، وفي إحدى زياراته للندن في نوفمبر ١٩٥٢م، فاتح ممثلو الشركة الأنجلو إيرانية روزفلت في الانقلاب على مصدق متمنين أن يتم ذلك بسرعة.

وعندما تولى دوايت أيزنهاور وإدارته زمام المسئولية في العشرين من يناير ١٩٥٣م، همس تشرشل في أذن الرئيس الأمريكي الجديد أنَّ مصدق -مع شدة اشمئزازه من الاشتراكية- إلا أنه اعتمد -أو قد يعتمد- على حزب تودة الموالي للسوفييت، وقد بلغ المَدُّ الشيوعي مرحلة الخطر؛ فذلك يؤدي بإيران إلى أن تتجه بسرعة نحو فَلَك الشيوعية والسوفييت، وهو ما كان يخشاه أيزنهاور.

الذي عُرِفَ عنه عداؤه الشديد للسوفييت، خَاصَّة مع خَوْض الولايات المتحدة صِراعًا مع الاتحاد السوفيتي للسيطرة على العالم "الحرب الباردة"، ومن هذا المنطلق اتفق أيزنهاور مع تشرشل على الإطاحة بمصدق، لكن كيف يتأتى ذلك ومصدق في ذروة قوته سياسيًا؟

نجح مصدق في يناير ١٩٥٣م في تمديد حالة الطوارئ عامًا آخر عقب ممارسته ضغوطًا على البرلمان، وتَمَكَّن بهذا القانون من إصدار قانون الإصلاح الزراعي الذي ألغى الزراعة الإقطاعية المنتشرة في إيران وقتها، واستعاض عنها بنظام الزراعة الجماعية وامتلاك الأراضي الحكومية، وأنشأ المجالس القروية التي زادت من حصة الفلاحين الإنتاجية؛ فأضعف بتلك الإجراءات قوة ونفوذ الطبقة الثرية، وتَقَرَّب بها لكسب تأييد حزب تودة، لَكِنَّ النتائج جاءت عكسية.

ارتفعت نسبة الفقراء في إيران نتيجة حملة المقاطعة التي دشنتها بريطانيا ضد قطاع النفط الإيراني، كما وقع خلاف بين مصدق وحليفه آية الله كاشاني؛ لمعارضة الأخير طلب مصدق بتمديد صلاحياته عامًا آخر غير الذي أصدره البرلمان في وقت سابق، وكان ذلك الخلاف بداية لسلسلة من التصدعات داخل الائتلاف الحاكم.

إِثْرَ ذلك انسحب مظفر بقائي رئيس حزب العمال الكادحين من ائتلاف مصدق، وكذلك حسين مكي الذي استولى أنصاره على مصفاة عبدان وعطلوا العمل بها، وجاءت الضربة القاصمة لمصدق من مراجع الشيعة الذين أفتوا بعداء مصدق للشريعة والإسلام، وبناءً عليه انسحب كاشاني من التحالف مع مصدق، وكَرَدِّ فعل على ذلك عرقلت كتلة مصدق توليه رئاسة المجلس النيابي بعد أن اتهمته ببيع القضية الوطنية لصالح نظام الشاه.

بحلول ربيع ١٩٥٣م، تدهورت الأوضاع أكثر فأكثر: فازدادت البطالة، وفقد المجلس النيابي السيطرة على الأوضاع، وازداد تململ الشاه من مصدق وسياساته، وبدأ عدد من الشخصيات الهامة ومنهم بعض نواب البرلمان يتسللون إلى دول الخليج المجاورة مقيمين علاقات مع البريطانيين بتحريض من نائب رئيس المجلس جعفر شريف إمامي، وأصبحت البلاد على شفا انهيار دستوري، وبدأ العد التنازلي لبقاء مصدق في الحكم.

مارس ١٩٥٣م، كَلَّف وزير الخارجية الأمريكي جون فوستر دالاس المخابرات المركزية الأمريكية التي يرأسها شقيقه الأصغر آلان دالاس بوضع خطة للتخلص من مصدق بأيِّ شكل من الأشكال، ولذا فقد استدعى كيرميت روزفلت -بتوجيهات من آلان دالاس- مايلز كوبلاند ضابط المخابرات الذي كان يتهيأ للعمل مستشارًا إداريا في مصر؛ ليتحاور معه حول ما يمكن عمله حيال احتمال قيادة مصدق لانقلاب يطيح به بالشاه، وبالتالي يفسد خطط جون دالاس لمحاصرة النفوذ السوفيتي، وبدأ روزفلت حواره مع كوبلاند قائلًا:

"آسف لتأخير ذهابك إلى مصر، ومطلوب منك القيام باستطلاع بسيط".

لم يكن هذا الاستطلاع البسيط سوى طلب روزفلت من كوبلاند السفر إلى إيران لإيجاد جواب للأسئلة الآتية:

- هل يمكننا أن نتخذ إجراءً سياسيًا لدعم الشاه وإضعاف الثقة بمصدق؟

- وهل يتوجب علينا اتخاذ هذا الإجراء؟

obeikandl.com

- وهل من الممكن منع أنصار مصدق من ارتكاب أفعال تخشى منها وزارتا الخارجية الأمريكية والبريطانية؟

سافر كوبلاند إلى إيران وعاد منها بأجوبة شافية لأسئلة روزفلت:

- نعم، نحن نحتاج إلى نشاط سياسي استثنائي هناك لحماية المصالح الأمريكية والبريطانية وتقديم أي دعم للشاه؛ لإطلاق برنامج علاقات عامة بين أفراد شعبه تلمع صورته وتجعله خيار النجاة الوحيد لهم، ويجب أن تكون الغاية من هذا النشاط تنحية مصدق عن المشهد السياسي، وإلقاء أنصاره في غياهب السجون.

رُفِعَت توصية كوبلاند لوزير الخارجية الأمريكي الذي وافق عليها، ورصد في الرابع من أبريل ١٩٥٣م مبلغ مليون دولار لتنفيذ الانقلاب ضد مصدق، وبتوجيهات من دالاس وروزفلت بدأ مكتب المخابرات الأمريكية في طهران بشن حملة دعائية ضد مصدق، وفي أوائل يونيو ١٩٥٣م، اجتمع مسئولو المخابرات الأمريكية والبريطانية في بيروت لوضع اللمسات الأخيرة على خطة الانقلاب التي أطلق عليها الاسم الكودي عملية أجاكس، وبعد فترة قصيرة وصل روزفلت إلى طهران لإدارة الخطة في السادس من يوليو ١٩٥٣م قادمًا عبر العراق.

تركزت عملية أجاكس على إقناع الشاه بإصدار مرسوم لإقالة مصدق كما فعل قبل عدة أشهر، لكن الشاه خشي من رَدِّ فِعْلٍ مُمَاثِلٍ لما وقع عند إقالة مصدق سابقًا، إضافةً لاستغراقها مدة طويلة لإقناع أصحاب النفوذ بالاشتراك فيها، واحتياجها لاجتماعات عدة تمولها الولايات المتحدة، لكن الظروف كانت كفيلةً بوضع هذه الخطة موضع التنفيذ.

احتدم الخلاف بين مصدق والشاه، وتدهور الوضع السياسي بدرجة غير مسبوقة، وانتفض الموالون لمصدق مجددًا؛ فقرر الشاه في السادس عشر من أغسطس ١٩٥٣م مغادرة البلاد مع زوجته ثريا أصفندياري على متن طائرته الخاصة إلى بغداد، حيث قوبل بالترحاب ومنها إلى العاصمة الإيطالية روما، لكنه قبل مغادرته وقع قرارين سيحسمان الأمر لصالحه لاحقًا:

الأول: إقالة مصدق.

الثاني: تعيين رئيس الأركان فضل الله زاهدي رئيسًا للوزراء بدلًا منه.

تطورت الأحداث على نَحْوٍ مفاجئ لصالح الشاه، ففي التاسع عشر من الشهر نفسه قصف الجنرال زاهدي بيت مصدق الواقع وسط طهران بالطيران، وأصدر كيرميت روزفلت توجيهاته لعملائه داخل إيران بالخروج في مظاهرات مناوئة لمصدق، وإبلاغ وسائل الإعلام بها.

أوكل روزفلت لشعبان جعفري زعيم الخارجين على القانون في طهران بالسيطرة على الأجواء عبر حشد مزيد من المناوئين لمصدق من زعماء العصابات في الشارع؛ لإرسال رسالة لحكومات الغرب بانهيار شعبية رئيس الوزراء، وبالتالي سحب الاعتراف الدولي به وذلك بالتوازي مع اغتيال القيادات التاريخية للجبهة الوطنية مثلما حدث مع حسين فاطمي وزير خارجية مصدق الذي اغتيل بالرصاص في رابعة النهار، وكان هذا هو الإعلان الصريح لما عرف تاريخيًا بانقلاب التاسع عشر من أغسطس على مصدق.

في اليوم التالي احتل زاهدي وزارة الدفاع دون مقاومة تُذْكَر، وما هِيَ إلا أيام قليلة حتى عاد الشاه لعرشه على أسنة الحراب الأمريكية؛ لينفذ بقية المخطط الأمريكي الذي أشرفت على إدارته سفارة العم سام.

عاد الشاه لطهران وكان هناك مئات الآلاف من المهللين لعودته من المنافقين والساخطين على مصدق والانتهازيين ذوي المصالح، وبمجرد جلوسه على العرش مُجَدَّدًا في قصر المرمر توافدوا ليَنْظُمُوا قصائد النفاق في الطاغية العائد، ويحجزوا لأنفسهم مكانًا في دولة القمع والفساد والمحسوبية التي كانت بصدد تدعيم أركانها ضد رغبة الشعب، واستتب الأمر لبهلوي بحلول الثاني والعشرين من أغسطس ١٩٥٣م، وكان شيء واحد هو المسيطر على عقل العائد للحكم لتوه: الانتقام.

فقد انتشرت قوات الجيش والشرطة الموالية للشاه تعقد محاكمات فورية لكل من تشك -مجرد شك- في تأييده لمصدق والتي أُعْدِمَ على أساسها مئات من الطلبة واليساريين في الحال، كما أنزلت هذه القوات عقوباتٍ قاسيةً بالمدن التي أيدت مصدق بشكل واضح وأيضًا المدن التي أبدى فيها رجال الدين عداءً سافرًا للشاه، فكانت مدن قم وشيراز وتبريز وأصفهان مسرحًا للمداهمات والاعتقالات العشوائية، وحَظِيت أصفهان بنصيب الأسد من تلك الممارسات كونها مدينة حسين فاطمي، وفي طهران أزالت الجرافات ما تبقى من منزل محمد مصدق؛ حتى لا يصبح رمزًا لمناهضي الشاه يستمدون منه القوة المعنوية لمواجهته في المستقبل.

أما مصدق نفسه فقد حوكم أمام محكمة صورية تفتقر إلى أبسط شروط العدالة حسبما أفاد محاميه خليل بزركمهر، أصدرت حكمها بالإعدام على

مصدق قبل أن يخفف إلى السجن الانفرادي ثلاث سنوات، وعَقِب الإفراج عنه فرضت عليه الإقامة الجبرية ما تبقى من حياته في قرية أحمد آباد شمال إيران، وكما عوقب أنصار مصدق كوفئ أنصار الشاه.

وعلى الرغم من خواء الخزينة الإيرانية نتيجة السياسات العقابية التي اتُّبِعَت خلال حقبة مصدق، إلا أن الشاه والولايات المتحدة أبيا إلا أن يكافئا أنصارهما ممن ساندوا الانقلاب أو شاركوا في الإعداد له، مثل الساسة المعارضين لمصدق ورجال الأعمال الذين أضيروا بسبب سياسة التأميم التي اتبعها مصدق، وقدمت الحكومة الأمريكية قرضًا بقيمة خمسة وأربعين مليون دولار، إضافةً إلى ما عرضته شركات النفط الأمريكية من عروض إقراض سَخِيَّة نظير ما ستجنيه من أرباح عَقِبَ أن ألغت حكومة الشاه الجديدة قرار التأميم الذي أصدره مصدق.

لم يكن تجاوز آثار إلغاء هذا القرار سهلًا؛ حيث تسبب في إعادة تشكيل الاتحاد المالي الذي سيدير شئون النفط في إيران، وامتدت مدة هذا التشكيل لما يزيد عن العام، ولم ينس الأمريكيون بالطبع الحصول على نصيبهم من كعكة الانقلاب، فقد أعيد تقسيم حصص الشركات النفطية العالمية فيما عرف بكونسورتيوم النفط على النحو التالي:

- شركات النفطية الأمريكية حصتها أربعون في المائة مما كان يحتكره البريطانيون قبل التأميم.

- شركات النفط البريطانية وحصتها أربعون في المائة أيضًا.

- شركات النفط الهولندية وحصتها أربعة عشر في المائة.

- شركات النفط الفرنسية وحصتها ستة في المائة.

كما عُيِّن كيرميت روزفلت العقل المُدَبِّر للانقلاب مستشارًا لعدد من شركات النفط في البلاد، وقد وجه الشاه لروزفلت الشكر على دوره المحوري في الانقلاب إذ قال له: "أنا مدين بعرشي لله ولشعبي ولجيشي ولك".

ولم ينس الشاه بالطبع أعوانه المخلصين الذين كانوا السبب في إعادة عرش الطاووس إليه مجددًا فكافئهم بسخاء، وكان هؤلاء هم:

١- الكولونيل نعمة الله ناصري.

الذي سلم مصدق قرار إقالته، وقد رقاه محمد رضا بهلوي إلى رتبة جنرال وعينه في وقت لاحق رئيسًا للسافاك.

٢- الجنرال فضل الله زاهدي.

رئيس أركان الشاه وقائد الانقلاب ضد مصدق، وقد أصبح أول رئيس وزراء بعد الانقلاب، وزوج الشاه ابنته شاهيناز من ابنه أزدشير، وعُيِّن أزدشير لاحقًا سفيرًا لبلاده في لندن.

٣- جعفر شريف إمامي.

نائب رئيس مجلس النواب وأحد أعمدة الانقلاب الأساسية ضد مصدق، بعدما تسبب في انهيار دستوري له، وقد عُيِّنَ فيما بعد رئيسًا لمؤسسة بهلوي المالية المملوكة للعائلة الحاكمة.

٣- الكابتن خاتمي.

قائد الطائرة الخاصة للشاه والذي أقلع به إلى بغداد، وقد كافئه بهلوي بتعيينه قائدًا للقوات الجوية.

كانت إدارة أيزنهاور تدرك أنه ليس معنى أنها مَكَّنَت الشاه من فرض نفسه كأمر واقع على الإيرانيين أنهم -أي الأمريكيين والشاه- قد قضوا على الحُبِّ الذي يُكِنُّه الشعب لمصدق، الذي ذاقوا على يديه معنى الاستقلال ورفض التبعية، وقد نَبَّه الأمريكيون رضا بهلوي لهذا الأمر، وقدموا له مذكرة اشتملت على سبع توصيات لرسم السياسة العامة لنظام حكمه وهي:

١- القيام بحملة تقتدى بالتقاليد الاجتماعية الإيرانية الراسخة؛ لتقديم الشاه في صورة كبير العائلة الذي يجب على الشعب الالتفاف حوله.

٢- استخدام الأساليب الدعائية لتدعيم السمعة الشخصية للشاه عبر خطب ود النساء، بتبني الشاه السياسات الرامية لتحرير المرأة.

٣- وجوب دعم الشاه وحكومته للطبقة الوسطى في المجتمع الإيراني والعمل على زيادتها، خاصة أن كثيرًا من المنتمين لهذه الطبقة عارضوا مصدق؛ لخشيتهم عواقب سياساته التي رأوها مغامرة تهدد مصالحهم، وبالتالي يمكن لهذه الطبقة تكوين أرضية داعمة للنظام.

٤- ظهور وجوه جديدة في الحياة السياسية الإيرانية؛ فكبار الساسة لا تسعفهم أعمارهم ولا أفكارهم التي عفا عليها الزمن في دعم بقاء هذا النظام.

٥- وجوب زيادة النفوذ السياسي للشاه عبر لعب دور محوري في الشرق الأوسط والعالم، خاصةً أن كثيرًا من رؤساء الدول الصغرى في العالم استفادوا من هذه التوصية، فما بالك بشاه إيران تلك الدولة المحورية في الشرق الأوسط المضطرب؟

٦- ينبغي على الشاه الاهتمام بالشئون الدينية اهتمامًا بالغًا، وأن ينتزع القيادة الدينية للبلاد من آيات الله ذوى العمائم السوداء في قُمّ، وحتى يتمكن من ذلك عليه أن يجتهد في رسم صورة الحاكم المتدين الملتزم بتعاليم دينه، ويواظب على الذهاب لأداء الصلاة في مسجد مختلف كل أسبوع.

٧- ينبغي وضع دراسة واعية لتنظيم المخابرات والسيطرة عليها، وأن يراعي الاهتمام بشكل خاص بمطالب القوات الجوية؛ لأن احتفاظ القوات الجوية بولائها للشاه يسمح لها بالقضاء على أيِّ تمرد ضد الشاه حتى من قِبَل وَحَدَات الجيش؛ وذلك لأنها تتكون من عدد قليل من الضباط والأفراد فَيَسْهُل إحكام القبضة عليهم بخلاف الجيش كبير العدد.

استرعت التوصية الأخيرة انتباه الشاه، وقرر تنفيذها على عدة محاور:
الأول: قرر الشاه تقوية ذراعه القمعية الباطشة المتمثلة في الجيش، خاصةً مع اضطراب الأوضاع في شمال وجنوب البلاد ورغبة الشاه في إحياء الامبراطورية الفارسية.

فأعاد تنظيم القوات البرية عبر إصدار قانون تنظيم المؤسسة العسكرية في التاسع عشر من أغسطس عام ١٩٥٣م، والذي بموجبه فصل الحرس الامبراطوري في نفس العام عن القوات البرية، واتخذ الإجراء نفسه مع القوات

الجوية عام ١٩٥٥م، واعتمد في تطوير القوات البرية على مدربين أغلبهم أمريكيين وبنسبة أقل بريطانيين، كما زاد عدد القوات البحرية بصورة بطيئة من ألفي رجل عام ١٩٥٣م إلى أربعة آلاف ١٩٦٣م، وكانت قاعدة تدريب البحرية تقع في منطقة بندر بهلوي على بحر قزوين، وشاركت البحرية الإيرانية في مناورات بالخليج العربي وخليج عمان مع أساطيل أمريكية وباكستانية وبريطانية أبلى فيها سلاح البحرية بلاءً حسنًا.

كما أوفد الشاه عددًا من الضباط لتَلَقّي دورات تدريبية في إيطاليا وعادوا منها بمستوى أفضل من ذي قبل، كما زاد عدد الجيش إلى مائتي ألف جندي بعدما قلصه مصدق لمائة ألف قبل الإطاحة به، وتَدَرَّج في الزيادة حتى وصل إلى سبعمائة ألف، وعاد الشاه يوفد المتدربين للولايات المتحدة وبخاصة في سلاح الجو.

وقد قدمت الولايات المتحدة للجنرال خاتمي خطة لتطوير القوات الجوية باسم نشر السلام، وهو مشروع طويل المدى يهدف لتحقيق الاكتفاء الذاتي التدريبي والقتالي للقوات الجوية، عبر الاعتماد على نظام تدريب واسع الأبعاد لتطوير الإداريات لثلاثة آلاف متخصص إيراني لتشغيل منظومات القيادة والسيطرة، وكانت صيانة الطائرات المقاتلة تقدمها مجموعة من مائة وخمسين متدربًا في شركة جرومان، كما سمحت الولايات المتحدة للطيران الإيراني بالتدرب في القواعد الجوية لحلفائها الأعضاء في الناتو مثل تركيا واليونان.

في وقت لاحق، وافقت الإدارة الأمريكية على طلب الشاه بإقامة نظام إلكتروني لجمع المعلومات باستخدام طائرة ١٣٠ سي آي المصممة خصيصًا لالتقاط الإشارات العسكرية من البلدان المجاورة، ورشحت له الإدارة الأمريكية شركة

روكويل التي يديرها الأعضاء والعاملون السابقون في المخابرات الأمريكية، وارتفع الدعم العسكري الأمريكي المُقَدَّم لإيران من خمسة عشر مليون دولار عام ١٩٥٥م إلى تسعين مليون دولار بين عامي ١٩٥٩م و١٩٦٠م وبمعدل خمسين مليون دولار في الستينات؛ نتيجة زيادة التصاق الشاه بالولايات المتحدة خوفًا من حدوث انقلاب مماثل لانقلاب عبد الكريم قاسم في العراق عام ١٩٥٨م يقضي على العرش الذي ورثه عن أبيه.

كان الشاه قد تلقى خبر انقلاب قاسم وإعدام رئيس الوزراء نوري السعيد وهو في زيارة لتركيا، وفي أول رد فعل له على انقلاب قاسم قال الشاه: "إن انقلابًا عسكريًا كهذا يمكن أن يحدث بكل سهولة في إيران".

واضطر الشاه للمكوث في تركيا عدة أيام حتى تتضح الصورة لديه عما يحدث في العراق وأصدائه في إيران، خاصةً مع الخلفية الشيوعية لعبد الكريم قاسم؛ ما أثار مخاوف الشاه من انقلاب مماثل يحمل الشيوعيين لسُدَّة الحُكْم ويطيح بعرشه إلى الأبد، ولما اطمئن لاستتباب الوضع في بلاده عاد إلى طهران.

قرر الشاه طلب المعونة من الولايات المتحدة، فهاتف الرئيس الأمريكي دوايت أيزنهاور، وطلب منه تزويد فرقتين عسكريتين بالعتاد اللازم، وأن تمنح الإدارة الأمريكية نظام الشاه معونة عسكرية واقتصادية، وأن تتكفل الولايات المتحدة بمساعدة إيران حال هوجمت.

واعتمادًا على مبدأ أيزنهاور الذي منح الولايات المتحدة حق مساعدة أي نظام يطلب الحماية من التغلغل الشيوعي خرج تصريح من الولايات المتحدة يقول:

obeikandl.com

"إذا حدث أي تهديد للسلامة الإقليمية أو الاستقلال السياسي لكل من إيران وباكستان وتركيا فإن الولايات المتحدة ستنظر إليه بأقصى الخطورة".

خشي الشاه من عودة الاتحاد السوفيتي لإيران عبر البوابة العراقية هذه المرة؛ ليصل عن طريقها إلى المياه الدافئة في الخليج العربي، وكانت هذه فرصة للشاه ليثير مشاكل جديدة مع العراق بباعث من أطماعه القديمة في الاستيلاء على مساحة جديدة من شط العرب، فقرر إظهار العين الحمراء لحكومة بغداد.

أرسل الشاه قواته الجوية وعزز من قواته البرية في منطقة عبدان الحدودية، ووُضِعَت جميع القوات المسلحة تحت الإنذار، وتحركت الأسراب المقاتلة إلى قاعدة ديزفول في الأحواز، ووُضِعَت المدفعية والدبابات وصواريخ (الأرض-جو) في مواقع حصينة على ضِفَاف شط العرب، وُوضَعت ثلاث فرق عسكرية بميناء خورمشهر كما تحولت الحدود القريبة من حقول النفط إلى قلعة عسكرية حصينة.

وزيادةً في تأمين حكمه، وَقَّعَ في طهران مع دوايت أيزنهاور الرئيس الأمريكي وقتها معاهدة الصداقة والتعاون مع أمريكا عام ١٩٥٩م، والتي أعطت لأمريكا الحق في اتخاذ الخطوات المناسبة التي تشمل الاستفادة من القوات العسكرية باتفاق الجانبين من أجل توفير السلام والاستقرار في الشرق الأوسط، ومن أجل مساعدة الحكومة الشاهنشاهية، وبناءً على طلبها احتوت المعاهدة على بندين سرين هما:

obeikandi.com

١- إجراء مباحثات بين القادة العسكريين في البلدين، وبالتالي ربط هذا البند الجيش الإيراني بنظيره الأمريكي، خاصةً مع صفقات السلاح الأمريكي التي مثلت العمود الفِقَرِيّ لتسليح الجيش الشاهنشاهي.

٢- أحقية الولايات المتحدة في ضرب الجمهوريات السوفيتية على حدود إيران بالأسلحة النووية حال نشوب حرب نووية بين القوتين العظميين وذلك عن طريق القاذفات الأمريكية المتمركزة في تركيا وذلك في حالة واحدة فقط، هي انتهاك القوات السوفيتية للحدود الإيرانية.

وقد آتت الجهود الأمريكية أُكُلَها واستطاعت إدارة أيزنهاور جعل الجيش الإيراني نسخةً جديدةً من الجيش التركي المجاور من حيث التجهيز والعقيدة العسكرية الموالية لها، وبذلك تستطيع المؤسسة العسكرية حماية عرش الشاه ورعاية مصالح الولايات المتحدة في نفس الوقت من ناحية، ومن ناحية أخرى تحجيم النفوذ والتهديد السوفيتيين في إيران، خاصةً مع اشتراك إيران مع الاتحاد السوفيتي في حدود يصل طولها إلى ألفين وخمسمائة كيلومتر.

تَعَدَّى النجاح الأمريكي حدود المأمول؛ إذ استطاعت أمريكا القفز على العداء التاريخي بين إيران وتركيا منذ عهد الصراع (الصَّفَوِيّ - العثماني)، وأبدلته تعاونًا -ولو مؤقتًا- في المجال العسكري، وقد جَنَتْ الولايات المتحدة أولى ثمار تعاونها الاستراتيجي مع النظام الشاهنشاهي عندما أقامت مركزين رئيسين للتنصت على الأراضي الإيرانية، يطلان على مواقع الصواريخ السوفيتية في آسيا الوسطى؛ وذلك مَكَّنَهَا من مراقبة الأنشطة الإلكترونية والنشاط العسكري للسوفييت من دولة هي الأقرب في حدودها مع الدولة الشيوعية من ناحية الخليج العربي.

وتنفيذًا لإرادة إدارة أيزنهاور: انضمت إيران لحلف بغداد عام ١٩٥٥م، والذي ضَمَّ إلى جانبها العراق وباكستان وتركيا، والذي كان موجهًا بالأساس ضد تيار مناهضة الاستعمار والقومية العربية الذي تزعمه جمال عبد الناصر، وقد تباهى الشاه بانضمامه لهذا الحلف عندما صرح بقوله: "إن إيران ستصبح حلقة أساسية في الدفاع عن العالم الحر".

واستطاع الشاه الاستفادة من المناورات المشتركة بين بلاده وتركيا، إضافةً إلى استعانته بخبراء فرنسيين في تعليم الملتحقين حديثًا بالمدارس والكليات العسكرية، كما زار الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٥٦م، وحصل على أسطول من طائرات اليوشن كبادرة حسن نية، كما قَدَّم له السوفييت قروضًا غير محددة لأغراض تطوير الصناعات الثقيلة بفائدة اثنين في المائة فقط.

ولم ينس بهلوي الاستفادة من إسرائيل الوافد الجديد على الشرق الأوسط في مجال التدريب العسكري بعد إعادة العلاقات الدبلوماسية التي قطعها مصدق، كل ذلك في مسعى منه للإلمام بأحدث أنواع التسلح؛ لبناء جيش يذود عن عرشه وقت الخطر، ووصل تحالف الشاه مع الكيان الصهيوني إلى مجابهة الأمن الإيراني للمظاهرات الشعبية التي خرجت للتنديد بالعدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م بعنف مُفْرِط، كما لعب بهلوي بورقة الأقليات الدينية داخل الجيش؛ فَعَيَّن البهائيين في وسائل الاتصال، وهي الأداة الرابطة لقطاعات الجيش ببعضها البعض؛ حتى يكسب دعم هذه الأقليات له إذا تصدعت أركان حكمه يومًا ما، وهكذا أضحى الشاه كلب حراسة وَفِيًّا لمصالح أمريكا في الخليج.

الثاني: التركيز على الأمن الداخلي المرتبط بحماية العرش والأسرة البهلوية المالكة، وكانت عقيدة جهاز الأمن ترى العدو متمثلًا في الاتحاد السوفيتي وحليفه

الإيراني حزب تودة. كما أنشأ المكتب الثاني الذي كان يتنصت على قيادات الجيش والشرطة السياسية التابعة لوزارة الداخلية. إضافةً لإعادة بناء شرطة الأقاليم.

وفيما يخص الأنشطة المخابراتية، كان الأمريكيون حاضرين بإشرافهم على كل كبيرة وصغيرة، وكان ضباط المخابرات من رتبة كولونيل فصاعدًا يتلقون دورات تدريبيةً في الولايات المتحدة، وخلال حكم الشاه تلقى أكثر من خمسة عشر ألف ضابطٍ هذه الدورات، واستطاعت المخابرات العسكرية الإيقاع بتنظيم عسكري سريّ داخل الجيش أعضاؤه أعضاء في حزب تودة، ويقوده العقيد مبشري ومعاونه النقيب روزيه الذي اعتُقِل سابقًا بتهمة الضلوع في محاولة اغتيال الشاه عام ١٩٤٩م قبل الفرار هاربًا عام ١٩٥٣م، وقد أُعْدِمَ سبعة وعشرون ضابطًا من هذا التنظيم، وحُكِمَ على مائة وأربعة وأربعين آخرين بالسجن مدى الحياة، وعلى مائة وتسعة عشر آخرين بالسجن خمسة عشر عامًا، وعلى تسعة وسبعين آخرين بالسجن عشر سنوات، والبقية لمدد تتراوح بين عام ونصف وثماني سنوات.

في تلك الفترة أيضًا بدأ التعاون المخابراتيّ بين المخابرات الإيرانية والموساد الإسرائيلي عام ١٩٥٥م وبموافقة أمريكية، عندما قَدَّم ديفيد بن جوريون رئيس الوزراء الإسرائيلي وقتها مبادرة عرفت بمبادرة المساعي الحميدة، والتي قدمها للجانب الإيراني رئيس الموساد مائير أميت، والتي سعى من خلالها بن جوريون لوضع آخر ما وصلت إليه التكنولوجيا الأمنية والعسكرية الإسرائيلية بين يَدَي الشاه؛ لإيجاد حلفاء إقليميين يكسرون العزلة السياسية التي فرضها الجوار العربي لإسرائيل عليها، ومن ناحية أخرى الرَدّ على صفقة الأسلحة التشيكية

obeikandi.com

لمصر، والتي استشعر خلالها بن جوريون اختلالًا مخيفًا في موازين القوة في الشرق الأوسط.

وقد تركت هذه المبادرة انطباعًا جيدًا لدى الشاه عن إسرائيل، ومن ثم أوفد الشاه عددًا من الضباط الأساسيين في المخابرات إلى إسرائيل للاستفادة من التقنيات الإسرائيلية الحديثة في عالم المخابرات وجلبها لإيران، واعتقد الشاه أَنَّه وَدَّع عصر القلاقل بلا رجعة، لَكِنَّ إقليم الأحواز فَجَّرَ قنبلة جديدة من الاضطرابات لمحمد رضا بهلوي.

عام ١٩٥٦م، قررت القبائل العربية في الأحواز القيام بثورة جديدة -ولكنها مسلحة هذه المرة- ضد بطش نظام طهران؛ فأسست جبهة تحرير عربستان، والتي سببت هجمات تنظيماتها السرية المسلحة صُدَاعًا مزمنًا لنظام طهران وحققت أمرين من خلالها:

الأول: سببت حالة من الارتباك لحسابات نظام بهلوي مُفْسِدَةً سياسة الحديد والنار التي اتبعتها أجهزته القمعية في التعامل مع كل معارضة لنظام آل بهلوي، وأفقدت الأحواز صفة الهدوء.

الثاني: تأكيد الهُوِيَّة العربية العصية على الذوبان في بوتقة الفرس العنصرية.

لم يفكر بهلوي في إيجاد حَلٍّ سياسيّ لمشكلة الأحواز، بل زاد أجهزة القمع جهازًا آخر عندما أسس منظمة المخابرات والأمن القومي "السافاك"، وهي اختصار لكلمة سازمان أمنيت واطلاعات كشور عام ١٩٥٧م، وأسندت إدارته للجنرال تيمور بختيار؛ وذلك مُكَافَأَةً له لتعقبه فلول أنصار مصدق وحزب تودة

obeikandi.com

عندما كان عمدة العاصمة طهران، وكان على صلة قرابة بثريا أصفنديياري زوجة الشاه، وكان السافاك يتكون من ست وحدات وهي:

١- وحدة شئون الأفراد.

٢- وحدة شئون السجون.

٣- وحدة التنسيق مع أجهزة المخابرات الخارجية.

٤- وحدة التعاون مع المخابرات العسكرية والمباحث.

٥- وحدة التجسس على الإيرانيين في الخارج.

٦- وحدة العمل والأمن الداخلي، وتلك أهم وحدات الجهاز على الإطلاق، وتختص بقمع التحركات المحلية، وتتفرع إلى أقسام حسب كل منطقة، وكل قسم يتفرع إلى فروع، ورَأَسَها الجنرال ناصر مقدم، وقد أظهر بختياري كفاءة في منصبه الجديد، وكانت المهمة الأولى بل والوحيدة لهذا الجهاز الأمني سيء الصيت إلقاء القبض على من يشتبه بانتمائه لتيار سياسي مناوئ للسلطة الحاكمة، و قمع المعارضين للشاه والتنكيل بهم ووضعهم تحت المراقبة، واستخدام أشد أساليب الاستجواب وحشية عند التحقيق معهم، مثل:

١- تعليق المعتقلين بالسلاسل المعدنية في الأسقف من أرجلهم ورؤوسهم متدلية إلى أسفل.

٢- صعق المعتقلين بالصدمات الكهربائية.

٣- وكان أقساها على الإطلاق ربط المعارض إلى محفة حديدية وإشعال لهب لحام الأكسجين تحته؛ فيَشْتَمُّ المحققون والسجناء رائحة شواء جسده.

٤- ربط يدى المعتقل إلى ركبتيه وتركه فترات طويلة على هذا الوضع فتتحول مفاصل يديه إلى عظام ومِنْ ثَمَّ يفقد القدرة على الحركة.

وكانت وسائل التعذيب قاسيةً للدرجة التي تغير من شكل المعتقل كثيرًا بعد الإفراج عنه، كما اضطلع بتصفية الخصوم السياسيين للشاه إما عبر القوانين الجائرة، مثل:

١- قانون الإعدام لتجار المخدرات، والذي فُصِّل لمعارضي الشاه السياسيين الذين فقد كثير منهم حياته على مذبح هذا القانون.

٢- التصفية الجسدية عبر الاغتيال.

ومارس السافاك أيضًا سياسة التجويع بحق المعتقلين، وكان سجنا أوين وأفين مَقَرَّين لممارسات التعذيب ما أكسبهما سُمْعَةً سَيِّئةً، وأسندت إليه كذلك مراقبة الطلبة الإيرانيين داخل إيران وخارجها، واستطاع بختياري الكشف عن هُوِيّة الآلاف من أعضاء حزب تودة، وألقى ثمانية آلاف منهم في السجون، واستطاع كذلك القبض على ثلاثة آلاف من ضباط الجيش من غير الموالين للشاه، وقد ساعد الموساد الإسرائيلي أيضًا في تأسيس السافاك مع حلفائهم في المخابرات الأمريكية.

وقد وصلت ميزانية السافاك إلى ثلاثمائة وعشرة ملايين دولار، وتزداد سنويًا بمقدار أربعين في المائة، ولَعِبَ السافاك كذلك دور الرقيب على الصحافة

والإعلام، كما كانوا يُصدِرون كُتُبًا مُضَلِّلَة تحوي أفكارًا معارضة للشاه من أجل الإيقاع بمعارضيه السياسيين الحقيقيين الموجودين على الأرض، إضافةً لإشراف السافاك على ستمائة هيئة نقابية وحكومية في البلاد، وقد وصل عدد موظفي السافاك إلى مائتي ألف، وكان للسافاك في كل حيٍّ من أحياء طهران وكل مدينة إيرانية مبنى للتجسس والمراقبة والاحتجاز وإجراء التحقيقات.

ولم يكن هذا كل شيء؛ فقد كان رجال السافاك في بعض الأحيان يحتلون مكاتب خصصت لهم في المصانع ويلعبون دور الوساطة بين العمال وأرباب العمل، ويُعَبِّئون العمال لتأييد الحكومة ونظام الشاه، وقد تسلل الشك إلى قلوب الإيرانيين من كل من يَدَّعي معارضته للنظام أنه من ضباط السافاك المدسوسين على الشعب، وتخطت مهام السافاك الشأن الداخلي الإيراني لتمتد إلى البعثات الدبلوماسية.

فقد كان رجال البعثات الدبلوماسية العاملون في إيران يشتكون من بعض الشخصيات التي تفرض نفسها على حفلاتهم دون دعوة ويشكون فيها؛ فلربما كانت عاملة في السافاك وأتت لتجمع معلومات تتضمنها التقارير الأمنية التي تذهب للشاه، وليت هؤلاء اكتفوا بفرض أنفسهم على حفلات الغير، بل ذهبوا أبعد من ذلك بإقامة حفلات باذخة وموائد فاخرة في منازلهم كانت النساء الحسناوات مدعوات بشكل دائم إليها، ويُجْبَر الدبلوماسيون العاملون في إيران على حضورها، وعن طريق هذه الحفلات فرضت هؤلاء النسوة أنفسهن على منازل الدبلوماسيين الأجانب وهو ما أثار حَنَق هؤلاء الدبلوماسيين.

وكان جمشيد خبيري من أشهر الإيرانيين المترددين على حفلات السفراء، وكان يصطحب معه طابورًا من الحسناوات، وكان وجهًا معروفًا لدى البَعثات

obeikandl.com

الأجنبية في إيران، وكان بالنسبة لهم عميلًا خالصًا من عملاء السافاك رغم مجاهرته بمعارضة النظام، وذلك بناءً على ما عرفوه من سياسات السافاك الملتوية.

كان السافاك يتبع رئيس الوزراء، وبعد فترة من إنشائه أعفي من مهمة جمع المعلومات عن المدنيين التي عُهِدَ بها لوحدة شئون الأفراد وعهد بها لجهاز الشرطة والأمن الداخلي؛ تنفيذًا لتوصيات بعثات قانونية دولية؛ حتى لا يواجه الجهاز ولا نظام الشاه سهام النقد في مجال حقوق الإنسان، وكان السجين لدى هذا الجهاز القمعي يُصَنَّف إلى فئتين هما:

السجين الإرهابي والسجين السياسي.

فأمَّا النوع الأول فهم الذين يلقون حتفهم في المعارك التي يخوضونها مع السافاك أو الجيش؛ لأنهم بحسب ادعاءات السافاك كانوا يرتكبون عمليات السلب والنهب ويخربون الممتلكات العامة، أما النوع الثاني فهم الذين يُلْقَون في غياهب السجون؛ لرفضهم سياسات النظام الشاهنشاهي -وفي رأيي- تعددت الأسماء والقتل واحد.

كما اهتم السافاك بأساليب التحليل الفنية للمخابرات السوفيتية، والأهم من ذلك التدرب على اكتشاف أساليب التجسس الإليكترونية التي برع فيها السوفييت، وكان السافاك وغيره من أفرع المخابرات والأجهزة الأمنية التي أنشأها الشاه عقب انقلاب ١٩٥٣م تضع معلوماتها بين يدي مكتب الشاه الذي يترأسه جنرال، وقد أمسك الشاه بخيوط هذه الأجهزة في يديه، وفصلها عن بعضها البعض حتى يغيب عنها التنسيق الذي لو حدث فسيؤدي بدوره إلى النقد الذي سيؤدى بدوره إلى التمرد على وريث عرش الطاووس؛ ومِن ثَمَّ

obeikandl.com

العَصْف بعرشه، وكانت تقارير هذه الأجهزة تُقَدِّم تقارير دورية عن مسئولي الشاه، وتحديدًا قادة الجيش، مثل: رئيس الأركان وقادة المشاة والمدفعية والمدرعات والبحرية؛ حتى يكون الشاه على علم بما يدور بينهم، ويحبط أي مخطط للانقلاب عليه، ويتخلص من أي شخص يعتقد في خيانته كما حدث مع الجنرال كاراني الذي اعتُقِل بتهمة التخطيط لقلب نظام الحكم، وقد نجح السافاك في تشتيت المقاومة ضد الشاه:

فالمثقفون إمّا زُجَّ بِهم في السجون أو اغتيلوا أو غادروا البلاد، وبعد ثلاث سنوات من الانقلاب، ترك خمسون ألف شاب إيران بشكل قانوني أو بشكل غير قانوني إلى العراق والكويت قبل الذهاب لأوروبا وأمريكا، أما مَنْ مَكَث في إيران من مناهضي حكم الشاه فقد قرروا تحليل أسباب فشل مصدق في الاستمرار ونجاح الانقلاب عليه، رغم أنه جاء بإرادة الشعب، وقرروا ممارسة المعارضة السرية.

وكان التعاون الأوثق بين الشاه والمخابرات الأمريكية وهو مكافحة التمدد الشيوعي يتم عبر السافاك، وهو الغرض الذي من أجله تعاون الأمريكيون في إنشاء هذا الجهاز سيء الصَّيْت، وبعد أن فَرُغَ الشاه من تنفيذ التوصية السابعة قرر تنفيذ بقية التوصيات، وكانت أهمها من وجهة نظره السيطرة على وسائل الإعلام المتمثلة في الصحافة والإعلام.

كانت الأوامر تصدر لرؤساء تحرير الصحف القومية بضرورة نشر صور الشاه على الصفحة الأولى لصحفهم؛ تحقيقًا لأسطورة كبير العائلة "الفرماندة باللغة الفارسية"، كما حُظِر استخدام الحبر الأحمر في طباعة الصحف بذريعة أنه رمز الشيوعية، وفي ذلك تَمَلُّق زائد من الشاه للسيد الأمريكي في واشنطن،

وكان مقص الرقيب في وضع الاستعداد دائمًا لحظر نشر أي مقال يتناول ولو بالنقد الرمزي الشاه وعائلته.

ثم قرر الشاه بعدها التخلص من ساسته التقليديين على طريقة انسف حمامك القديم، فَرَقَّى الشاه رجاله القدامى في وظائف مدنية، وأبعدهم بذلك عن لعب أي دور سياسي في صياغة مستقبل إيران، واستبدل بهم ساسة جدد كان الولاء للشاه والانقياد له أهم الصفات المتوافرة فيهم، مثل:

أمير عباس هويدا الذي قضى مدة طويلة من عمله الدبلوماسي مندوبًا لإيران في الأمم المتحدة، وبالتالي لم يكن وجهًا معروفًا للشعب الإيراني، وقد خَلَفَه في رئاسة الوزراء شخصان صنعهما الشاه على عينه هما هوشانج أنصاري والذي تولى وزارتي الإعلام والاقتصاد قبل ترؤسه الوزارة، وجامشيد أموزيجار الذي بدأ حياته مهندسًا، لَكِنَّ هذه الوجوه الجديدة كانت دُمَى يحركها الشاه من وراء ستار، لا تنطق إلا بما يمليه عليها الشاه، وما سوى ذلك تتعامل معه بمنطق: (لا أسمع لا أرى لا أتكلم).

أما عن الطبقة الوسطى التي قرر الشاه إنشاءها، فلم تكن كما أرادها الأمريكيون طبقة متوسطة تدعم النظام في مقابل حماية مصالحها، بل خلق طبقة انتهازية فاسدة من التجار المنتمين للعائلات الكبرى في طهران والوسطاء وأصحاب الأعمال، الذين عملوا إما وسطاء في صفقات الفساد يحصلون على عمولاتهم المُتَّفَق عليها من ورائها، وإما هم أنفسهم أصحاب هذه الصفقات ويدفعون للعائلة المالكة عمولتها؛ ليستمر الدوران في حلقة الفساد المُفَرَّغَة التي استنزفت موارد البلاد لصالح الشاه وحاشيته والشِرْذِمة الفاسدة المحيطة بهما.

نسف الشاه بما فعله وجود الطبقة الوسطى، وقَصَر المجتمع على طبقتي الأثرياء شديدي الثراء والفقراء مُدْقَعِي الفقر؛ حتى أصبح مشهد الأحياء الفقيرة التي تفوح منها رائحة مياه الصرف الصحي الكريهة مشهدًا مألوفًا في طهران عاصمة إيران النفطية، ونالت الأسرة الحاكمة نصيب الأسد من شلال الفساد المتدفق الذي تسبب فيه تزايد الأرباح النفطية، بعد أن وَقَرَ في ذهن الشاه أن البلاد قد غدت ضَيْعَةً له ولعائلته وللعائلة المالكة.

أنشأ الشاه مؤسسة بهلوي عام ١٩٥٨م، التي تسترت وراء النشاط الخيري عبر بيع الأراضي المملوكة للعائلة على بحر قزوين بأسعار معقولة للفلاحين، وتوجيه عائداتها للمساعدات الخيرية، مثل: إقامة العيادات الطبية وأندية الشباب وإيفاد الآلاف من الطلبة للدراسة بالخارج، وتولى الشاه رئاسة مجلس الأمناء، وعَيَّن نائبًا له في رئاسة المجلس من أخلص رجاله هو جعفر شريف إمامي، وكانت المؤسسة تؤدى هذه الخدمات بالفعل لَكِنَّ غالبية الأرباح تذهب لحسابات أفراد العائلة، وتقاسم كل فرد من أفراد العائلة شَطْرًا من ثروات البلاد المنهوبة:

فالملكة الأم كانت مولعة بامتلاك الأراضي والعقارات، وكان لها مكتب فَخْم في مبنى بشارع تخت طاووس.

أما محمود رضا شقيق الشاه الأصغر فكان اهتمامه مُنْصَبًّا على المعادن وفي صدارتها الفيروز ثم الكوبالت والبوكسيت، وليس أدل على ذلك من كونه أكبر شريك في شركة استخراج الفيروز الوطنية، وشركة شاهراند الصناعية، وشركات عديدة أخرى تعمل في مجال المعادن.

والأميرة أشرف شقيقة الشاه كانت مشتركة في الأعمال المصرفية وصناعة الورق.

وكان لأصدقاء العائلة نصيب من النهب، فأردشير صهر الشاه وابن رجله القوى زاهدي كان يمتلك نسبة كبيرة من أسهم صناعة السيارات، وكان هوشانج أنصارى وزير مالية الشاه يرعى مصالح الشاه المالية الخاصة، وشقيقه قورش أنصاري اشترى بالنيابة عن الشاه خمسة وعشرين في المائة من أسهم مؤسسة كروب الاقتصادية الألمانية، وحصل الساسة والدبلوماسيون والعسكريون ورجال الأعمال من أزلام الشاه على مكافآت مماثلة.

بمرور الوقت، تغلغلت مؤسسة بهلوي بشكل ملحوظ في الحياة الاقتصادية؛ حتى أصبحت امبراطورية مستقلة عن الدولة، فالأسرة المالكة ومؤسسة بهلوي تتحكمان في الأنشطة الاقتصادية التالية:

١- ثمانين في المائة من صناعة الإسمنت الإيرانية.

٢- سبعين في المائة من الفنادق السياحية.

٣- اثنين وستين في المائة من البنوك وشركات التأمين.

٤- أربعين في المائة من صناعة النسيج.

٥- خمسة وثلاثين في المائة من صناعة السيارات.

وعلى صعيد علاقات الشاه بالمؤسسة الدينية فقد اتسمت بالاضطراب: حيث امتازت المؤسسة الدينية الإيرانية ببعض المميزات التي جعلتها ذات تأثير كبير في رسم سياسات النظام داخليًّا وخارجيًّا:

أولها: استقلاليتها عن السلطة السياسية وسُخْطَهَا على ممارساتها من ناحية أخرى.

وثانيها: قوة تنظيمها العقائدي.

وثالثها: في توفيرها للزعامات الدينية وعلاقاتها القوية مع طبقة التجار.

رابعها: السيطرة القوية لرجال الدين على المجتمع الإيراني خاصةً الفقراء وذوي التعليم المحدود، الذين يشكلون أكثر من ثلث سكان البلاد وقتها، خاصةً مع تشكيل الدين أكبر نفوذ ثقافي ملزم وأكبر مصدر تشريعي يلجأ إليه الإيرانيون.

عنما تولى الشاه الحكم، شَابَ الغموض موقفه من المؤسسة الدينية، حيث قال:

"لمَّا تَسَلَّمت الحكم في السادس عشر من سبتمبر ١٩٤١م، كانت الأعمال مُفَكَّكَة ومُنْحَلَّة تمامًا؛ بسبب الاعتداء على الأجانب ونفوذهم في البلاد، وكانت قوى الفساد والرجعية والطابور الخامس الأجنبي وفئة أخرى هي بعض من رجال الدين أو المتزيين برجال الدين الذين نعرف جميعًا كما كانوا".

كان آية الله حسين البروجردي هو رأس المؤسسة الدينية، وكان رجلًا بعيدًا تمام البعد عن الصراع السياسي الدائر في البلاد، وكانت اهتماماته منصبة على شئون منصبه، كجمع الخمس، والفتاوى، وشئون الحسينيات، والتدريس في

الحوزات، وتوفير احتياجات المعلمين والدارسين في مدينة قُمّ المقدسة، إلا أنه -وتحت ضغط الطائفة وعلمائها الرافضين لسياسات الشاه- رفض هو الآخر السير في ركب مؤيدي النظام البهلوي.

ظل الناس ينظرون للمؤسسة الدينية على أنها مؤسسة بعيدة تمام البعد عن المؤسسة العسكرية، وكانوا على صواب في ذلك؛ فقد كان العاملون في مساجد إيران يتقاضون رواتبهم من المؤسسة الدينية، التي تتدفق عليها ثروة طائلة من أموال الخمس التي يدفعها الشيعة كزكاة، وبلغ عدد قرى الأوقاف الشيعية التابعة للمؤسسة الدينية ست آلاف قريةٍ، عَلَاوةً على الحَصَانَة الممنوحة لرجال الدين من المُحَاسَبة إذا ما اختبأ أحد المطلوبين للعدالة في دور العبادة أو بيوت رجال الدين، إضافةً لتصرفهم بمعزل عن النظام الحاكم فيما يتعلق بشئون السياسة.

ولهذه الأسباب كان الشاه يَمْقُتُ المؤسسة الدينية بعد أن فشل في تطويعها لصالحه، وظَلَّ الشاه عاجزًا رغم ذلك عن اتخاذ قرارات متشددة وحاسمة بشأنها؛ حتى لا تؤدي إلى ما لا يُحْمَد عُقْباه. أما المؤسسة الدينية فقد ناضلت ضد نظام الشاه للإبقاء على امتيازاتها كما هي، واستغل الشاه كل شاردة وواردة لنزع مخالب المؤسسة الدينية.

فعندما وقعت حادثة محاولة اغتياله عام ١٩٤٩م، اتهم الشاه المؤسسة الدينية بالوقوف وراءها، وعندما أدرك الشاه استحالة تحقيق مراده حاول التودد إليها مثلما فعل رئيس وزراء الشاه على أميني لآية الله كاشاني ونشرت الصحف الخبر، وتارةً بمنحها الحرية في ممارساتها وغض النظر عنها، وتارةً بادعاء الصفة الدينية في شخصه وأنه يرى أرواح الصالحين في المنام وزيارته

للأماكن المقدسة في إيران مثل قبر الإمام الرضا في مشهد، لَكِنَّ تصرفات الشاه كانت متناقضة مع أقواله.

عندما تظاهر رجال الدين ضد الشاه عامي ١٩٥١و ١٩٥٢م أنزل الشاه الجيش لمواجهتهم وقَمْعِهِم بلا رحمة، لَكِنَّه حافظ على شعرة معاوية معهم خاصةً مع حاجته للمؤسسة الدينية في صراعه ضد الشيوعية، وظلت نار المواجهة بين الاثنين مُلْتَهِبَةً تحت رماد المصلحة المتبادلة.

ومرة أخرى استطاع الشاه استغلال انقلابه على مصدق؛ لنزع مخالب المؤسسة الدينية عبر توجيه ضربة موجعة لها عندما شجع تحويل المجتمع الإيراني لمجتمع صناعي؛ ليسبب ذلك تراجعًا في قطاع التجار العريض الموالي لآيات الله، كما استعمل أسلوب العين الحمراء مع بعض العلماء كمحمود كاشاني وهو نجل رجل الدين آية الله كاشاني حليف مصدق السابق، والذي قرر ألا يعيش في جلباب أبيه، وكان يمتدح الشاه في الإذاعة ويُهَدِّد من يعارضه بالويل والثُبور وعظائم الأمور كل ذلك في إطار تكريسه للنظام العلماني، كما قرر الشاه حصر نشاط المؤسسة الدينية في الشئون الدينية المَحْضَة بعيدًا عن أية اهتمامات سياسية، وأصدر أوامره بالقضاء على أي نفوذ لرجال الدين في الحياتين السياسية والاجتماعية.

وبناءً على ذلك أصدر تشريعًا يقضي باستيلاء وزارة التعليم على المدارس المملوكة لرجال دين أو مُدَارة من قِبَلِهِم وإخضاع مناهجها لمناهج وزارة التعليم الإيرانية، ولم يمض وقت طويل حتى أصدر بهلوي تشريعًا جديدًا يسمح للدولة بالاستيلاء على مساحات هائلة من الأراضي الزراعية المملوكة للأوقاف الدينية، كما نزع ملكية الأوقاف لعقارات أخرى، وتزامن ذلك مع اشتداد الملاحقة الأمنية

للعناصر والجمعيات المتعاطفة مع التيار الديني، لَكِنْ فاتت الشاه حقيقة راسخة: إن الدين لا يُنْتَزَع من الصدور.

فعندما دفع الشاه بالجيش لردع رجال الدين كان يعتمد في ذلك على ولاء ضباط الجيش وجنرالاته ذوي المصالح والامتيازات مع نظامه، علاوةً على تأثرهم بالنمط الغربي؛ لتلقيهم دورات تدريبية في بلاد الغرب كفرنسا والولايات المتحدة، بينما كانت الرتب الصغيرة والجنود ميالة للمؤسسة الدينية بحكم التربية التي تلقوها في المدن والأرياف الإيرانية المتوسطة الحال والفقيرة، والتي يغلب عليها طابع التدين مقارنةً بالطبقات الغنية القريبة من دوائر الحكم، لَكِن في نهاية الأمر كان الجنود يُنَفِّذون الأوامر الصادرة لهم بالقمع دون نقاش.

ونتيجةً لصدامه المتزايد مع المؤسسة الدينية؛ ظهر تنظيم أطلق عليه روحانيان مبارز أي العلماء المناضلون، وقد هدف هذا التنظيم إلى دخول الساحة السياسية بمنأى عن المرجعية الدينية، ولم يعجب ذلك الشاه الذي سارع إلى وأدها في المهد عبر ذيوله في المؤسسة الدينية.

دفع بهلوي برجاله الذين يتزعمهم آية الله بهبهاني والمعروفين بجماعة الخميس؛ حيث اعتادوا عقد اجتماع يوم الخميس في بيت بهبهاني إلى العمل على جذب المؤسسة الدينية إلى البلاط تحت ستار محاربة الشيوعية، لَكِنَّ جماعة الأربعاء المناهضة للبلاط من أمثال آية الله طالقاني وجلال نائيني وضياء الدين سيد الجوادي تَصَدَّت لهم بنشرها فتوى نائيني التي طالب فيها بطرد علماء البلاط من المؤسسة الدينية، وتشنجت إثْر ذلك العلاقة بين البروجردي والشاه، وخلقت سياسات الشاه الاستبدادية والفاسدة معارضةً شديدة له خارج المؤسسة الدينية، قررت أن تسلك مسلك العنف والكفاح المسلح ضده

obeikandi.com

من جماعات المعارضة السرية التي ذكرناها آنفًا. فظهرت جماعتان مسلحتان هما:

١- مجاهدي خلق والتي تأسست عام ١٩٥٩م وهي ذات مرجعية إسلامية.

٢- فدائيين خلق ذات المرجعية الماركسية.

وعلى الرغم من اختراق صفوفهما من قبل السافاك في بادئ الأمر -الأمر الذي تسبب في تلاشي تأثيرهما في البداية- إلا أنهما سرعان ما أعادتا تنظيم صفوفهما، وبدأ تأثير هجماتهما في الظهور، وغدت فدائيين خلق أكثر كفاءة من نظيرتها، بعد أن أقامت علاقات واتصالات مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي تزعمها الطبيب والسياسي الفلسطيني جورج حبش، وأرسلت بعض أعضائها للتدريب في معسكرات المنظمة في لبنان، الأمر الذي سيسبب المتاعب للشاه ونظامه لاحقًا.

وكما تلقف حبش معارضي بهلوي، سبقه خصم شرق أوسطي آخر لعرش الطاووس وهو عبد الناصر، الذي استقبل منتصف الخمسينيات ثلاثة من أبرز الأعضاء الأساسيين في المعارضة الإيرانية وهم:

إبراهيم يزدي، وصادق قطب زادة، ومصطفى شمران، والذين التقوا بمسئولي المخابرات المعنيين بشئون اللاجئين السياسيين، وأخبروهم برغبتهم في التدرب على حمل السلاح؛ لأنه ما من سبيل للوقوف بوجه الشاه سواه، وعلى ذلك فقد أرسلوا إلى المكان الذي يتلقى فيه مقاتلو الحركات التحررية تدريباتهم وهو معسكر أنشاص الواقع خارج القاهرة، ودام الوفاق بين المعارضين الإيرانيين ومضيفيهم المصريين رَدَحًا من الزمن حتى عصفت الخلافات به.

obeikandl.com

طلب قسم اللاجئين السياسيين من ضيوفه الإيرانيين العمل في الإذاعات الموجهة لمهاجمة الشاه التي تبث إرسالها من القاهرة، لكن شمران ورفاقه رفضوا المطلب المصري؛ تحت ذريعة أنهم ما حضروا لمصر إلا للتدرب على السلاح، فالكلمات لن تسقط الشاه بحسب رأيهم.

حاول مسئولو المخابرات المصرية إقناعهم بأن المقاومة المسلحة لنظام الشاه في إيران مستحيلة، وأن الدعاية لهم عن طريق الإذاعة سلاحٌ فَعَّالٌ حتى تحين اللحظة المواتية، لَكِنَّ جهودهم ذهبت أدراج الرياح، وقرر الإيرانيون مغادرة مصر إلى الولايات المتحدة ولبنان حيث الحركة بحرية أكبر.

خلال تلك الفترة التي تعاظمت فيها قوة الشاه، قرر بهلوي تنفيذ وصية أبيه التي أوصاه إياها قبل أن يُنْفَى: "لقد حررت الشاطئ الشرقي للخليج من العرب وعليك تحرير الشاطئ الغربي".

ولم يكن الشاطئ الغربي من الخليج المطلوب تحريره سوى السعودية والعراق وبعض الدول التي نالت استقلالها حديثًا، أما التحرير الذي قصده بهلوي الأب فهو تحرير هذه البلاد هويتها العربية وإضفاء الصبغة الفارسية عليها في إطار المشروع التوسعي البهلوي الهادف لإحياء الامبراطورية الفارسية القديمة.

وقد كان الشاه الصغير عند حسن ظن أبيه، وقطع شوطًا طويلًا في تنفيذ هذا المخطط:

فبدأ بالتوغل في العراق الجار الغربي والعدو اللدود للفرس، وأقام مخافره الحدودية داخل الأراضي العراقية وليس داخل آخر منطقة حدودية في أراضيه كما هو متعارف عليه دوليًا، كما شق العديد من الطرق في المناطق الحدودية

مع العراق بطريقة أدخلت عدة أراض عراقية إلى إيران عُنْوَةً؛ فَرْضًا للأمر الواقع، وعَزَّزَ هذه الانتهاكات الصارخة بنشر قوات عسكرية في تلك المناطق، وبدأ بعد ذلك يطالب بتعديل الحدود بين البلدين؛ فتصبح هذه المناطق المحتلة جزءًا من الأراضي الإيرانية تحت بند الأمر الواقع.

إضافةً إلى ذلك أصر الشاه على أحقية إيران في جزء من منطقة شَطِّ العرب وهي مصب نَهْرَي دجلة والفرات، ورفض إعلان الحكومة العراقية أن شط العرب جزء لا يتجزأ من الأراضي العراقية، وكذلك تنفيذ أوامر الحكومة العراقية بإنزال العلم الإيراني عند عبور السفن الإيرانية لشط العرب في إعلان صريح لغطرسة القوة التي طغت على تصرفات وريث عرش الطاووس.

مضى الشاه في مخططه التوسعي قُدُمًا؛ فسلح جيشه بأحدث العتاد كما أسلفنا، وأنشأ عددًا من القواعد البحرية على ساحل الخليج الشرقي كخسرو آباد، وحَوَّل ميناء بندرعباس إلى قاعدة بحرية، وقاعدة بوشهر التي زُوِّدَت بكافة التجهيزات اللازمة قدمتها هيئة فنية أمريكية، كما أنشأ مطار الأحواز الذي استخدم للأغراض العسكرية والمدنية، وأنشأ شبكة رادارات لمراقبة الطائرات، وأنشأ قاعدة للطائرات المروحية في جزيرة خرج.

وبموازاة سياساته القمعية في الداخل، أقام الشاه علاقات دولية متينة مع الدول الغربية خاصة الولايات المتحدة، وبدرجة أقل بريطانيا وفرنسا، وخلال زيارة قام بها بهلوي لباريس ليجري محادثات مع الرئيس الفرنسي شارل ديجول في ربيع عام ١٩٥٩م عقد لقاءً مع أعضاء الجالية الإيرانية في فرنسا بسفارة بلاده، التقى فيه للمرة الأولى بفرح ديبا، تلك الطالبة الإيرانية الجميلة التي ذهبت إلى فرنسا في بعثة لدراسة الهندسة، وهي سليلة أسرة عريقة من مقاطعة

أذربيجان شمال إيران وأُعْجِب بها، وقرر أخذ الخطوة الأولى في ارتباطه بها مُسْتَقبلًا.

عند عودتها صيف نفس العام لقضاء العطلة مع عائلتها، علمت من عمها أن الشاه أرسل فضل الله زاهدي ليأخذ من عمها صورًا شخصية لها، وفي يوم عيد ميلادها الحادي والعشرين الذي وافق الرابع عشر من أكتوبر ١٩٥٩م، دعاها الشاه لتحتفل به معه في قصر نيافاران بطهران.

بعد أن غادر المدعوون طلب الشاه منها أن تكون زوجته، بعدما طلق في الرابع من مارس ١٩٥٨م صفية أصفندياري زوجته الثانية التي كانت عاقرًا ولم تنجب له ولي العهد الذي يتمناه، وقد أجابته ديبا في حينها: نعم.

وكان الشاه صريحًا معها عندما أخبرها بالأعباء التي ستلاقيها بزواجها منه، فقال لها: "سيكون عليك باعتبارك ملكة الكثير من المسئوليات تجاه الشعب الإيراني".

لَكِنَّ ذلك لم يغير من موقف فَرَح شيئًا، وفي نفس اليوم هاتفها الشاه ليعرفها على أفراد أسرته، وكانت فرح لا تخشى من أحد سوى تاج الملوك والدة الشاه؛ لِمَا عَلِمَته عن صرامتها، لَكِنَّ اللقاء مَرَّ عَادِيًّا، ولم تُسَجِّل تاج الملوك ملاحظات على زوجة ابنها المستقبلية، وأُعْلِنَت خطوبة فرح إلى الشاه في الحادي والعشرين من نوفمبر ١٩٥٩م.

زُفَّ الشاه إلى عروسه في الحادي والعشرين من ديسمبر ١٩٥٩م، وفي العشرين من مارس ١٩٦٠م أُعْلِنَ أن الشاه بهلوي والشاهبانو فرح ديبا ينتظران قدوم ولي العهد، وفي الحادي والثلاثين من أكتوبر ١٩٦٠م، وضعت الشاهبانو فرح ديبا

مولودها الذي أطلق عليه اسم رضا تيَمُّنًا بأبيه، لَكِنَّ الحياة لا تسير على وتيرة واحدة.

انتهت ولاية دوايت أيزنهاور في العشرين من يناير ١٩٦١م، وتولى الرئاسة بدلًا منه الديمقراطي الشاب جون كينيدي، وكانت العلاقات مع شاه إيران من بين الملفات التي بحثتها إدارة كينيدي بمجرد توليه الرئاسة، وطلب من فريقه المعاون إعداد ورقة عمل بخصوص العلاقات مع إيران في أسرع وقت، مستفيدًا في ذلك من علاقة شقيقه السيناتور روبرت كينيدي مع المعارضين الإيرانيين لنظام الشاه المقيمين في منفاهم بأمريكا، وكان معاونوه عند حسن ظنه.

وصلت الورقة لكينيدي عقب توليه الرئاسة من جون هاولينج نائب مدير مكتب الشئون اليونانية والتركية والإيرانية في وزارة الخارجية، وهو من كُلِّف بإعدادها، وكان يعلم عمق كراهية كينيدي للشاه بصفة خاصة، وكرهه لدور مخابرات بلاده في الانقلاب على مصدق بشكل عام، حيث كان يعتبر هذا الأمر ذكرى سوداء يجب محوها.

قَدَّم هاولينج تصوره لنظام بديل للشاه في عدة تصورات، رأى أن أَوْقَعَهَا حدوث انقلاب عسكريّ، يسير على خطى مصدق، ويؤيده صغار ضباط الجيش وسكان المدن، وسيكون حليفًا للولايات المتحدة، لكنه سيتمخض عن عدة عيوب على المدى البعيد وهي:

١- إنهاء الحلف المركزي "السانتو" الذي يضم إيران وتركيا وباكستان.

٢- انسحاب البعثة العسكرية الأمريكية من إيران.

٣- التخلي عن البرنامج الحالي لتحقيق الاستقرار الاقتصادي في إيران.

٤- توجيه ضربة موجعة لسمعة أمريكا في العالم.

٥- فرصة لتغلغل الشيوعيين في نظام الحكم الجديد.

٦- قبول المساعدات الاقتصادية وربما العسكرية من الاتحاد السوفيتي.

٧- فقدان صوت إيران الداعم لأمريكا في الأمم المتحدة.

٨- اتخاذ الحياد كسياسة إيجابية.

٩- اتخاذ خطوات غير معروف طبيعتها للحصول على مزيد من الأموال من الشركات العالمية.

عزف كيندي عن قبول اقتراح هاولينج، وقرر ممارسة ضغوط سياسية على الشاه للقيام ببعض الإصلاحات السياسية التي تحفظ ماء وجه الولايات المتحدة وتحفظ للشاه عرشه في نفس الوقت؛ لعلمه أن نظام الشاه لن يُجْدِي معه سوى الضغط، وقد استخدم شخصيتين إيرانيتين لهذا الغرض هما:

١- تيمور بختيار رئيس السافاك.

٢- علي أميني وزير الثقافة في عهد مصدق.

وكانت العلاقة بين الشاه ورئيس السافاك تيمور بختيار قد انقلبت عداوةً؛ بعد أن اكتشف الشاه طمعه في تَوَلّي السلطة، خَاصّةً مع تغلغل السافاك في عهده في دواوين الحكومة والسفارات الأجنبية في داخل إيران والسفارات والمصانع والفنادق والبعثات الطلابية الإيرانية في الخارج، وترتيبه وتمويله

obeikandi.com

للمظاهرات المناهضة للشاه بتحريض من إدارة كيندي في يناير ١٩٦١م، إضافةً إلى نفوذه القوى في أوساط القوات المسلحة.

كل ذلك أثار خشية الشاه من انقلاب بختيار عليه، فألقى القبض على ثلاثة وثلاثين من قادة الجيش الموالين لبختيار قبل إقصائه من السافاك وتعيينه سفيرًا لبلاده في روما، لَكِنَّ ذلك لم يَقْضِ على خطره نهائيًا كما أَمِل الشاه؛ فقرر الانتقال لخطوته التالية.

تعامل الشاه مع بختيار تعامل الجراح مع السرطان؛ فأصدر في نفس العام قرارًا بعزل بختيار نهائيًا من منصبه كسفير؛ ليخرج بعدها مَنْفيًا إلى لبنان، وهناك قُبِضَ عليه بطلب من الشاه لنظيره اللبناني شارل حلو، ثم غادر بعد ذلك إلى المنفى في سويسرا، لَكِنَّ اتصاله بسيد البيت الأبيض لم ينقطع.

وكان الشاه على قناعة تامة أن بختيار في منفاه مخلب قط تستخدمه إدارة كيندي متى شاءت، وهو ما أثبتته الأحداث اللاحقة؛ فقد استطاعت إدارة كنيدي بعد ما أدى بختيار المطلوب منه إرسال مبعوث إلى الشاه وهو أفريل هاريمان، يطلب منه صراحة الرضوخ لطلب إدارة كيندي، ولم يجد الشاه مناصًا من ذلك.

أعلن الشاه مرغمًا تعيين علي أميني رئيسًا للوزراء في الخامس من مايو ١٩٦١م، وفي التاسع عشر من مايو ١٩٦١م وجه الشاه نداءً للشعب الإيراني، وطلب من البرلمان منحه صلاحيات واسعة لانتشال إيران من تَخَلُّفِها، وبدأ الشاه يضع خططًا تنموية خمسية لبناء المصانع والسدود وقنوات الري وزيادة

السكك الحديدية إلى ثلاثة أمثالها، ومَدّ أنبوب نفطي عبر إيران بطول ألفين وأربعمائة كيلومتر، وإنشاء طرق فرعية بطول ثلاثين ألف كيلومتر.

وفي ذلك العام أيضًا استطاع الشاه القضاء على ثورة الأحواز المشتعلة منذ خمس سنوات، وقام بزيارة ناجحة إلى فرنسا في الحادي عشر من أكتوبر ١٩٦١م، ناقش فيها مع الرئيس ديجول القضايا ذات الاهتمام المشترك، وفي ذلك العام أيضًا قَدَّم القَدَر خدمةً جليلةً للغاية للشاه.

غَيَّب الموت آية الله البروجردي زعيم المؤسسة الدينية، وكانت هذه هي الفرصة التي انتظرها بهلوي مَلِيًّا حتى يُحْكِم قبضته حول هذه المؤسسة التي أتعبته كثيرًا، وحاول أن يضع على رأسها مُرَشَّحًا يقف في صفه عندما تقتضي الضرورة، وكان هناك عدد من المراجع ذوي الأعمار المتقاربة مثل:

الشهروردي ومحسن الحكيم والشيرازي في النَّجَف، كاظم شريعتمداري ومحمد رضا كلبايكاني وروح الله الخميني ومرعشي نجفي في قُمّ، ومحمد هادى ميلاني في مشهد، وآية الله الخونساري في طهران، وقد قرر الشاه بينه وبين نفسه أن يكسر احتكار آيات قُمّ الذين وقفوا حائلًا أمام تحقيق طموحاته، فزار الشاه قُمّ، وخطب خطبةً طويلةً كان مما قال فيها:

"إلى هذا الوقت كان هناك مقام غير مسئول يقف سدًا في طريقي، ولم أستطع معه تنفيذ أو تحقيق نوايا والدي. من الآن فهذا المقام غير موجود".

ثم أرسل برقية تعزية إلى مرجع عربي هو السيد محسن الحكيم، فيها الكثير من التلميحات بإمكانيات توليه المرجعية خَلَفًا للبروجردي، لَكِن فَشلَت خُطَّة

الشاه، وظلت المؤسسة الدينية عقبةً كؤودًا في طريق هيمنته على مُقَدَّرَات الأمور في إيران، ومُجَدَّدًا تصادم بهلوي مع حليفه الأمريكي.

في الحادي عشر من أبريل ١٩٦٢م، زار بهلوي وزوجه فرح ديبا الولايات المتحدة، والتقيا جون كينيدي وزوجه، وتباحث الرئيس الأمريكي وضيفه في الشأن السياسي الإيراني، وأبدى الشاه خلال لقائه مع مُضَيِّفِه الأمريكيّ ضِيْقَه من تَرَأُّس أميني للوزراء، وحتى لا يخسر كينيدي خدمات الشاه قرر الوصول معه لحل وسط.

اتفق بهلوي وكينيدي خلال اللقاء على عدة بنود إصلاحية إذا ما نفذها الشاه أمكنه الاستغناء عن أميني، وعند عودته إلى إيران استغنى الشاه عن أميني لكنه لم ينفذ البنود التي وعد بها كينيدي، وأعلن بهلوي ما عُرِف بالثورة البيضاء، لكن الشاه اصطدم مع مرجع سبعيني صعقه بمعارضته الحادة وألفاظه الخشنة التي لم يعتد على سماعها من أحد من المعممين: إنه آية الله الخميني.

وكانت تلك بداية العداء المستحكم بين الرجلين.

obeikandl.com